ابن مالك (١)

هو جمال الدين ، محمد بن عبد الله بن عبد الله بن مالك الطائىُّ الجيّانى .

وقد كنى ابن مالك بأبى عبد الله ، ولقّب بجمال الدين ، فيما بين أيدينا من مراجع . وذكر الدكتور عبد المنعم هريدى أنّه فى (هداية السالك إلى ترجمة ابن مالك) لابن طولون ذُكِر لقب آخر لابن مالك وهو (جلا الأعلى) (١) .

وابن مالك ينتسب إلى قبيلة طيّىء العربية ، وقد يستغرب ذلك لأنّه مولود فى الأندلس – وهى البلاد البعيدة جدًّا عن موطن العرب – ولكن من المعروف أنّ جيوش الفتح الإسلامى التى دخلت الأندلس ، كانت تضم أشتاتا من أبناء القبائل العربية المختلفة ، وقد استوطنوا الأندلس ، واتخذوها مقرا ومقاما ، ومنهم قبيلة طيىء . وطيىء هذه تنتسب إلى (طيىء – (جلهمة) بن أدد بن يشجب بن عريب بن زيد

ابن كهلان بن سبأ (١) بن يشجب بن يعرب بن قحطان (٢) وهى قبيلة يمانية ، ومعروفة بالأندلس ، وكانت منازلها قرب جيّان (٣) .

أما بلدة جيّان التى ولد فيها المؤلف ، فهى بلدة أندلسية ، يقول عنها صاحب معجم البلدان (٤) : « جَيّان (بالفتح ثم التشديد ، وآخره نون) مدينة لها كورة واسعة بالأندلس ، تتصل بكورة البيرة ، مائلة عن البيرة إلى ناحية الجوف ، فى شرقى قرطبة ، بينها وبين قرطبة سبعة عشر فرسخا » . وفى الروض المعطار (٥) « ولكورة (جيّان) أقاليم عدة ، وبها أسواق كثيرة .... ولها أقاليم كثيرة ، وقرى عامرة ، وعمائر واسعة » .

مولد ابن مالك :

يتحصر مولده فى جميع الروايات بين عام ٥٩٨ هـ وعام ٦٠١ هـ ، فقد تردد بعض مترجميه (٦) فقالوا إنه ولد سنة ٦٠٠ أو ٦٠١ هـ ، واقتصر الصفدى (٧) ، وابن تغرى بردى (٨) على القول بأنّه

ولد سنة ٦٠١ هـ . وهناك رواية أوردها صاحب نفح الطيب (١) عن ابن غازى أنَّ ابن مالك ولد سنة ٥٩٨ هـ . والخلاف فى تاريخ ولادة ابن مالك ذكره د. بركات (٢) ، وعدنان الدورى (٣) عند ترجمتهما له . ونضيف إلى ما أورداه النص التالى ، وهو ذو أهمية كبرى ، فقد قال ابن مكتوم (٤) : « ولد بِجيّان فى شهور سنة ستمائة ، وقيل فى سنة ثمان وتسعين وخمسمائة ، وحُكىَ هذا عن الصاحب كمال الدين أبى القاسم ابن العديم (٥) ، وهو الصحيح » . وهذا النص يرجح الرواية القائلة بمولد ابن مالك فى سنة ٥٩٨ هـ ، وقد ذكرها ابن الجزرى (٦) أيضا بقوله « ولد بجيَّان سنة ثمان وتسعين وخمسمائة ، وقيل سنة ستمائة » .

مكانة ابن مالك العلمية :

بلغت مكانة ابن مالك العلمية فى عصره شأواً عظيماً ، ولعل تلميذه شيخ الإسلام النووى خير من صور ذلك بقوله : « شيخنا ، جمال الدين بن مالك ، رضى الله عنه ، وهو إمام أهل اللغة والأدب ، فى

هذه الأعصار بلا مدافعة » (١) . لقد كان إماماً فى اللغة (٢) ، لأنّه « صرف همته إلى إتقان لسان العرب حتى بلغ فيه الغاية ، وأربى على المتقدمين » (٣) . وقد قيل عنه أنّه كان إليه المنتهى فى اللغة (٣) ، وقال الصّفدى (٣) « أخبرنى الشيخ الإمام ، شهاب الدين ، محمود (رحمه الله) من لفظه قال جلس يوما (يعنى ابن مالك) وذكر ماانفرد به صاحبُ المُحْكَمِ عن الأزهرى فى اللغة ، قلت : وهذا أمر معجز لأنه يريد ينقل الكتابين (٤) .

« وأمَّا اطلاعه على أشعار العرب التى يستشهد بها على النحو واللغة ، فكان أمراً عجيباً ، وكان الأئمة الأعلام يتحيرون فى أمره (٣) » ، وقد ذكر السّبكى (٢) أنَّ ابن مالك كان إماما فى حفظ الشواهد وضبطها .

هذا ، وكان أيضا « إماما فى القراءات وعللها ، وصنف فيها قصيدة دالية مرموزة فى قدر الشاطبيّة (٣) ، وقد عدَّه ابن الجزرى فى طبقات القراء وذكر أنّه أخذ القراءات عن ثابت بن خيار بجيّان ، وعن

السخاوى وغيره ، ثم قال « غير أنى لا أعلم أحداً قرأ عليه القراءات ولا أسندها عنه » (١) . وقد تولى (ابن مالك) المشيخة الكبرى للعادليّة الكبرى بدمشق والتى من شرطها القراءات والعربية (١) .

أمّا النحو والتصريف فكان فيهما بحراً لا يشق لجّه(٥)وإذا كان الناس قد شغلوا كثيرا بكتاب سيبويه ثم بمفصل الزمخشرى ، فإنّهم قد شغلوا كثيرا بتسهيل ابن مالك وألفيته شرحاً ، ودرساً ، وحفظاً لأزمانٍ طويلة . وقد أشاد العلماء بعلمه ومهارته فى النحو فقال ابن القويع ركن الدّين (٢) : إنّ ابن مالك ماخلّى للنحو حرمة (٣) ، « ويحكى أنّ الشيخ تاج الدين الفزارى ، العالم المشهور تأسّف يوم موت ابن مالك تأسّفاً كثيراً ، فقيل له : أكان الشيخ جمال الدّين فى النحو مثلك فى الفقه فقال : والله ما أنصفتموه ، كان فى النحو مثل الشافعى فى الفقه (٤) » . أمّا الحديث فكان ذا اطلاع واسع فيه ، قالوا عنه إنّه « كان فيه آية ، لأنّه أكثر ماكان يستشهد بالقرآن ، فإن لم يكن فيه شاهد عدل إلى الحديث ، وإن لم يكن فيه شىء عدل إلى أشعار العرب » (٥) . وذكر صاحب الدرر الكامنة (١) : « أنّ اليونينى أبو الحسين قرأ صحيح البخارى على ابن مالك تصحيحاً ، وسمع منه ابن مالك رواية وأملى عليه فوائد مشهورة » . وقد قال ابن مالك عن نفسه لصاحب دمشق « أنّه أعلم الناس بالعربية والحديث » (٢) .

وقد تأتّى له هذا العلم الواسع نتيجة لما كان عليه من حبٍّ العلم والسعى له ، بالإضافة إلى ماوصف به من أنّه « كثير المطالعة سريع المراجعة ، لايكتب شيئا من محفوظه حتى يراجعه فى محلّه وهذه حالة المشايخ الثقات ، والعلماء الأثبات » (٢) . وحُكى عنه أنّه توجه يوماً مع أصحابه للفُرْجة بدمشق فلما بلغوا الموضع الذى أرادوه غفلوا عنه بسويعة ، فطلبوه فلم يجدوه ، ثم فحصوا عنه فوجدوه منكبا على أوراق . وأغرب من هذا فى اعتنائه بالعلم مامر أنه حفظ يوم موته عدة أبيات حدّها بعضهم بثمانية ، وفى عبارة بعض (أو نحوها) لقّنه ابنُه إيّاها (٢) .

كل هذه المكانة العظيمة ، وهذا العلم الواسع ، مع ماكان عليه من الدّين والعبادة وصدق اللهجة ، وكثرة النوافل ، وحسن السمت وكمال العقل . وانفرد عن المغاربة بشيئين : الكرم ، ومذهب الشافعى (٢) ،

كما كانوا يقولون عنه . وكان حريصا على أن يبرىء ذمته فى مجال التعليم ، فقد روى ابن الجزرى (١) عن بعض مشايخه أنَّ ابن مالك « كان يجلس فى وظيفته مشيخة الإقراء بشباك التربة العادليّة ، وينتظر من يحضر يأخذ عنه ، فإذا لم يجد أحداً يقوم إلى الشباك ، يقول : القراءات القراءات ، العربية العربية ، ثم يدعو ، ويذهب ، ويقول : أنا لا أرى أنَّ ذمتى تبرأ إلاّ بهذا فإنه قد لا يُعْلم أنى جالس فى هذا المكان لذلك » . وهذا النص فى الحقيقة يرينا صورة عن عمل العلماء فى المدرسة العادليّة ، وعن عمل ابن مالك .

شيوخه:

لم تذكر مصادر ترجمته شيئاً عن سيرته في الأندلس قبل هجرته إلى المشرق، لكنّ الراجح أنه أمضى سِنِي حياته الأولى حتى مطلع شبابه في الأندلس بدليل تلمذته لاثنين من علمائها، هما: ثابت بن خَيّار اللَّبْلي الذي أخذ عنه القراءات في (جَيّان) ، والشَّلَوْبين الذي أخذ عنه وجالسه نحو ثلاثة عشر يوماً

أما شيوخه في بلاد الشام، فهم:

1- الحسن بن الصَّباح: أخذ عنه في دمشق.

2- ابن أبي الصقر: أخذ عنه في دمشق أيضا.

3- ابن الخباز المَوْصِلي.

4- السَّخاوي: أخذَ عنه في دمشق.

5- ابن يعيش: أخذ عنه في حلب.

6- ابن الحاجب: أخذ عنه في دمشق.

7- ابن عمرون: أخذ عنه في حلب.

8- محمد بن أبي الفضل المرسي: أخذ عنه في دمشق.

تلاميذه:

أمضى ابن مالك جُلَّ حياته في التدريس، فقد عينه السلطان بَيْبَرَس مدرساً في المدرسة العادلية بدمشق، وولاّه مشيخة الإقراء أيضاً. ((كما تصدّر للتدريس بحلب، وأمَّ بالسلطانية)، ولمّا غادر دمشق إلى حلب توقف في حمص وحماة فتصدّر للتدريس فيهما.

لقد كان له، لتنقله بين هذه المدن تلاميذ عدة، ولاسيما في دمشق، لكنه كثيراً ما كان يفتقد من يحضر حلقته في المدرسة العادلية، وينتظر من يحضرُ يأخذُ عنه، فإذا لم يجد أحداً يقوم إلى الشباك ويقول: القراءاتِ القراءاتِ، العربيةَ العربيةَ، ثم يدعو ويذهب ويقول: أنا لا أرى ذِمّتي تبرأ إلاّ بهذا، فإنّه قد لا يُعلم أنّي جالس في هذا المكان لذلك) .

أما تلاميذه فيبدو أنهم أخذوا عنه العربية، ولم يكن له تلاميذ في القراءات، فلم يذكر ابن الجزري([٣٤]) في غاية النهاية أحداً أخذ القراءات عن ابن مالك، قال)) :ولما دخل حلب... أخذ عنه العربية غير واحد من الأئمة، غير أني لا أعلم أحداً قرأ عليه القراءات، ولا أسندها إليه) .

ولعلّه أقرأها في مدينة أخرى غير حلب. وفيما يلي إحصاء تلاميذه:

1- ابنه محمد بدر الدين (ت ٦٨٦هـ): شرحَ الألفية وغيرها من كتب أبيه.

2- الإمام النَّووي.

3- ابن جَعْوان.

4- ابن المُنَجَّى.

5- اليُونيني.

6- البهاء ابن النّحاس.

7- ابن النحّاس الدمشقي.

8- شهاب الدين الشاغوري.

9- ابن أبي الفتح البَعْلي.

10- الفارِقي.

11- ابن حازم الأذْرَعي.

12- ابن تمّام التَّلِّي.

13- مجد الدين الأنصاري.

14- ابن العطَّار.

15- علاء الدين الأنصاري.

16- أبو الثناء الحلبي.

17- أبو بكر المِزِّي.

18- ابن شافع.

19- بدر الدين بن جماعة.

20- ابن غانم.

21- البِرْزالي.

22-ابن حَرْب.

23- الصَّيرفي.

وفاته:

توفي ابن مالك سنة (٦٧٢هـ) بدمشق، بلا خلاف، ودفن بسفح جبل قاسيون، ولم تذكر مظانّ ترجمته ظروف وفاته، ما عدا السَّخَاوي([٦٤]) الذي ذكر السبب عَرَضاً من غير أن يترجم له، وذلك حين عدَّد أسماء الذين ماتوا غبناً فقال: "وممن مات بأخرة غَبْناً الجمال بن مالك راوية جزيرة العرب نحواً ولغةً، فإنه مع أوصافه الجليلة وكونه على جانب عظيم من الاحتياج وضيق الوقت عورض فيما استقرّ فيه من خطابة ببعض قرى دمشق، من بعض جَهَلتها وانتُزعتْ منه له، فكاد أن يموت لاسيّما وقد حضر الجُمعةَ وسأل الجاهل المشار إليه بعد فراغه من الخطبة والصلاة عن مخرج الألف، فتحيَّر وظنّ أنه كلّمه بالعجمية، ثم عدّد له حروف الهجاء، مبتدئاً بالألف، وسرَدَها، فصَاحَ العامة الذين تعصّبوا لهذا الجاهل سروراً لكونه سُئل عن مسألة فأجاب بتسعٍ وعشرين، وما وجَدَ الجمالُ ناصراً، بل استكانَ ومات بعد أيام يسيرة" رحمه الله.

آثاره

ألّف ابن مالك في مختلف علوم العربية، وجاءت مؤلفاته على مستويين اثنين، هما: المتون الموجزة، والشروح المطوّلة، وكان ذلك وفقاً لمستوى التلاميذ أو القراء، ووفقاً للغاية من تلك المؤلفات.

وقد برز طابع النظم بوضوح في مؤلفاته من خلال اثنتي عشرة قصيدة وأرجوزة حشد فيها كثيراً من مسائل اللغة، والنحو، والصرف، والقراءات. ثم ما لبث أن شعر بالغموض يعتري بعضها فشرحَ عشراً منها.

كما برزت في مؤلفاته ظاهرة شرح المتون النثرية، فشرحَ عدداً منها، وأغلب الظنّ أنه كان يعمد إلى الإيجاز، والاختصار في التأليف لسهولة إملائه وحفظه، ثم يشرع

في الشرح بعد حين، فالشرح سمة أخرى في مؤلفاته المنظومة والمنثورة. كما يمكن ردّ هذه الظاهرة إلى العصر المضطرب الذي عاش فيه، فقد عاش فترة قلقة شهد خلالها نهاية الدولة الأيوبية (٦٤٨هـ) وظهور دولة المماليك البرجية، وفي أيامه سقطت بغداد (٦٥٦هـ) على أيدي التتار الذين قضوا على الخلافة العباسية ودمروا كل شيء؛ فنهض عدد من العلماء يذودون عن التراث من خلال حفظه في متون موجزة تشرح فيما بعد.

أما مؤلفاته فقد بلغت ستة وأربعين كتاباً، ذكر بعضهم ثمانية وعشرين منها في منظومة شعرية([٦٦])، وذكر آخر خمسة غيرها في مقطوعة ثانية، وأحصت كتب التراجم عدداً آخر. وقد انقسمت بحسب موضوعاتها إلى ثلاثة أقسام نسوقها بتعريف موجز، مع الإشارة إلى ما طبع منها. وهي:

آ ـ كتب اللغة:

1ـ الإعلام بمثلَّث الكلام: قصيدة عدد أبياتها (٢٨١٥) خمسة عشر وثمانمئة وألفَا بيت، ذكرتها بعض المصادر بعنوان (المثلث المنظوم)، وبعضها بعنوان (المثلث في اللغة) .

2ـ إكمال الإعلام بتثليث الكلام: شرحٌ للمنظمة السابقة، (زاد عليه تلميذه ابن أبي الفتح عدة ألفاظ) .

3ـ إكمال الإعلام بمثلث الكلام: أرجوزة، نظمها في حلب، في (2755)خمسة و خمسين وسبعمئة وألفَيْ بيت، وأهداها إلى الملك الناصر عماد الدين.

4ـ ثلاثيات الأفعال: يتضمّن ما جاء من الأفعال على (فَعَلَ وأَفْعَلَ) بمعنى واحد، وهو على صلة بالكتب السابقة.

5ـ تحفة المودود في المقصور والممدود: وهو قصيدة همزية، عدد أبياتها (١٦١) واحد وستون ومئة بيت من البحر الطويل.

6ـ شرح تحفة المودود: شرحٌ للكتاب السابق.

7ـ الإرشاد في الفرق بين الظاء والضّاد: رسالة في ألفاظ متفقة المبنى مختلفة المعنى.

8ـ الاعتماد في نظائر الظاء والضاد: شرح فيه الكتاب السابق ورتّب ألفاظه على حروف المعجم.

9ـ الاعتضاد في الفرق بين الظاء والضاد: قصيدة عدد أبياتها (٦٢) اثنان وستون بيتاً مع شرحٍ عليها.

10ـ قصيدة ظائية في الفرق بين الظاء والضاد، وشَرْحُها.

11ـ منظومة فيما ورد من الأفعال بالواو والياء: قصيدة تائية، من البحر الكامل، عدد أبياتها (٦٧) سبعة وستون، ساقها السيوطي في المُزهِر.

12- النظم الأوجز فيما يُهمز وما لا يُهمز: منظومة فيما هو مهموز وغير مهموز.

13- الوفاق في الإبدال: كتاب مختصر في الإبدال.

14- ما اختلف إعجامه واتّفق إفهامه.

15- جمع اللغات المشكلة.

16- الضَّرَب في معرفة لسان العرب.

17- فتاوى في العربية: جمعها بعض تلاميذه.

18- الألفاظ المختلفة في المعاني المؤتلفة: جمع فيه الألفاظ المترادفة مرتبةً بحسب الموضوعات.

ب ـ القراءات القرآنية:

نظم ابن مالك قصيدتين في القراءات، هما:

19- المالكية: قصيدة دالية منسوبة إلى ناظمها، على غرار الشاطبية.

20- اللامية: قصيدة لامية في القراءات، لم يضع لها عنواناً، فَخَر فيها بما زادته على الشاطبية من إفادة.

ج ـ كتب النحو والصرف:

جمع ابن مالك ـ في الغالب ـ بين النحو والصرف في مؤلفاته غير أن الفصل بين النحو والصرف ليس دقيقاً فيها، وإنْ غلب عليها النحو، لكنّه خصّ الصَّرف بخمسة كتب مستقلة، وفيما يلي أسماء كتبه النحوية، أولاً:

21- الكافية الشافية: أرجوزة طويلة عدة أبياتها نحو ثلاثة آلاف بيت من مزدوج بحر الرجز، اقتبس تسميتها من مقدمتي شيخه ابن الحاجب، واستوعب فيها معظم مسائل النحو والصرف، ونظمها في مدينة حلب، وهي الأصل الذي اختصر منه الألفية.

22- شرح الكافية الشافية: شرحٌ للأرجوزة السابقة.

23- الخلاصة: أرجوزة عدة أبياتها (١٠٠٢) اثنان وألف بيت، اشتهرت باسم الألفية، لخّص فيها أرجوزته الكبرى (الكافية الشافية).

مصدر شيوخه وتلاميذه ووفاته وآثاره من صفحة

منتدى العلوم اللغوية

https://www.facebook.com/499824163826444/posts/521806748294852/